النقاد الجديد

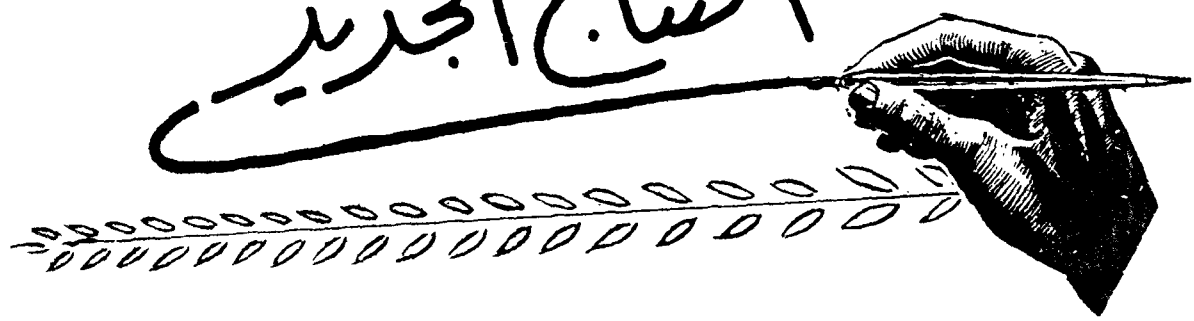

ناجي الشاعر

تاليف الدكتورة نعمت احمد فؤاد

مكتبة الخانجي ـ القاهرة

*

ما كنا قط في حاجة الى النظرة الموضوعية ، مثل حاجتنا لها الان في تلك الفترة من تاريخنا التي تختلط فيها القيم والتي يموت فيها القديم المحافظ ليخلى مكانه للجديد الثورى . وأبناء هذا الجيل يحملون على عاتقهم مسئوليات جساما . فنحن اذ نودع العصور الوسطى ونستقبل العصر الحديث بكل ما في هذا الاصطلاح من معان فلسفية وانسانية ، يجب علينا دائما ان نضع في اعتبارنا أننا واعون بثورية تلك المرحلة وبالمسئولية الواقع عبؤها على اكتافنا ، وان هذا الوعي يضاعف من جسامة المسئولية اذ انه يلزمنا بان نسبق التاريخ والاحداث وان نحيط تماما بالقوانين التي تحرك الاحداث حتى يمكننا التحكم فيها .

وقد يبدو هذا الكلام مكررا معادا ، الا ان قراءتي لكتاب السيدة الدكتورة نعمات أحمد فؤاد عن « ناجي الشاعر » قد اثارت كل هذه القضايا في ذهني من جديد .

ثمة اختلاط بين القيم بعضها البعض ، وثمة فوض شاملة تسود ميدان الفكر في العالم العربي . هذا الاختلاط وهذه الفوضى يلزماني بان احدد معاني بعض الاصطلاحات التي نستخدمها في حديثنا اليومي دون ان نتفق على تعريف دقيق لها مثل الاصطلاحين الادب والنقد .

الادب عامة ـ والشعر على الاخص ـ تعبير عن ذات الاديب التي هي متفردة بالضرورة . فالاديب حينما ينظر الى هذا العالم يسقط عليه من ذاته عناصر جمالية وفردية تنظم ذلك العالم فتستبعد ما تعتقد انه لا ضرورة له وتؤكد اهمية ما ترى انه ذو ضرورة حيوية للتعبير عن تلك الذات ـ التي يدعي الاديب انها هي ذات الانسانية جمعاء

ونتيجة لعملية الاسقاط تلك ياتي الى الوجود العمل الفني الذي يكون جزءا صغيرا من رؤية ذلك الاديب للعالم . لذا لا يمكننا بتاتا ان نعزل احد اعماله لننقده على انفراد بل يجب علينا ان ننظر لاعمال اي اديب ككل ينمو ويتطور .... تماما كالانسان .

وتبعا لهذا الفهم يصبح النقد الادبي محاولة لاعادة تشييد بالدرجة الاولى ، ثم هو بعد ذلك تقييم . وهو محاولة اعادة تشييد من حيث ان الناقد لا يمكنه ان يتفهم ذات الاديب الذي امامه الا بعد ان يعيش تجربة مماثلة لتجربته . وليس في امكانه ان يجتاز مثل تلك التجربة الا بعد ان يسلم نفسه لاعمال الاديب التي امامه لتملي عليه قوانينها الخاصة واحكامها المختلفة فعلى الناقد ان يدخل عالم الشاعر غير المنطقي وان يتصوره بناء متكاملا وان يلاحظ عملية النمو ذاتها ، بالاختصار ، ان يعيد تشييد رؤية الاديب في حالة حركتها .

وبعد ان يتخطى الناقد تلك المرحلة الذاتية ، ينتقل الى المرحلة الموضوعة ، اعني وضع العمل الفني على بعد ثم اصدار احكام تقييمية تظهر فضائل هذا العمل ومثالية لهذا يمكننا القول ان ثمة عنصرين متناقضين ، يشتركان في تكوين اي نقد ادبي ناجح ... عنصر ذاتي وعنصر موضوعي .. تعاطف مع الفنان من جهة وعدم تحيز له من جهة اخرى . واي محاولة لفصل العنصرين عن بعضهما تسبب احادية في النظرة فالنقد الذوقي من نوع « اشعر الناس امرؤ القيس اذا ركب . » ناتج عن عدم تخطي الناقد للمرحلة الاولى من النقد . كما ان النقد الذي يكتفي باحصاء السرقات الشعرية ويحاول ان ينقب دائما وباستمرار عن « الدرس » الذي يلقننا اياه الاديب هو النقد الذي لا يحتوي على عنصر التعاطف اللازم لاي فهم صحيح للعمل الادبي وهو النقد الذي يكتفي بابعاد ذلك العمل للحكم عليه باحكام تعسفية غير نابعة منه .

وكتاب السيدة الدكتورة نعمات احمد فؤاد يقع في القسم الاول من هذا النقد الاحادي النظرة اعني قسم النقد الذوقي الذي يكتفي بذكر الانطباعات دون التدليل ، والذي لا يمكن للانسان ان يكتشف من خلاله رؤية الاديب الخالق الذي يقيّمه ذلك الناقد لان ذات الاخير قد اختلطت اختلاطا كليا بذات الاول ، الا ان هذا النوع من النقد الذاتي ، يتمتع بدرجة محدودة من الصدق لانه يقترب من العمل الفني من زاوية معينة : زاوية التعبير المباشر عن الاستجابة السريعة للعمل الفني . وهذا النوع يعتمد على التمثل الكلي لرؤية الفنان ثم التعبير عنها في جملة او في مقال صغير او ملحوظة دون ادنى محاولة لوضع مثل هذه الملحوظات ، النقدية في اطار منهجي .

وتخطىء السيدة الدكتورة خطأ فادحا بكتابتها كتابا كاملا عن انطباعاتها . فبعد عدة صفحات ينتاب الانسان السأم والملل لانه يواجه طوال الوقت بشخصية الناقدة ولا تظهر شخصية الشاعر ناجي الا لماما .

وثمة خطأ اخر تقع فيه السيدة الدكتورة الا وهو تقسيمها لاعمال الشاعر الى « اغراض » فهنالك فصل عن شاعر الغزل (ص ٣٩ : ص ٦١) وجزء خصص للشعر الوطني (ص ٧٢ : ص ٧٤) واخر لشعر المناسبات .. الرثاء (ص ٨٠ : ص ٨٤)(١) ثم الهجاء (ص ٨٤ : ص٨٥) واخيرا المدح (ص ٨٥ : ص ٨٩) . فهي بتقسيمها الجامد هذا الذي

«١» هل يمكننا اعتبار المراثي من شعر المناسبات ... لعله الفهم القائل بان الرثاء هو المدح الذي يبدأ بكان ، هو الذي قاد السيدة الناقدة الى مثل هذا الخلط وقد يثور بعض القراء للاحظتي تلك فهي اعتراف ضمني بوجود شعر للمناسبات الا انني امتنع عن الخوض في هذا الموضوع مرجئا ذلك الى وقت اخر حيث انني اكتب مقالا عن الازدواجية في الشعر الرومانتيكي العربي اعالج فيه هذه المشكلة بالتفصيل .

تنهج فيه نهج الاقدمين قد افسدت كثيرا من مقدرتها على النقد الذوقي وحرمت نفسها مقدرة التعبير المباشر عن الاستجابة السريعة (الامر الذي اجده يلائم مزاجها كثيرا لان الانطلاقات العاطفية الذاتية منتشرة في كتابها الى حد كبير) .

هذا الى جانب ان هذا التقسيم دليل على الفجاجة النقدية . فتقسيم الشاعر على هذا النحو هو تشريح له . لا يبين لنا اتجاه تطوره وكيفية نمو رؤيته الشعرية . ورغم ان لهجة الناقدة في حديثها عن ناجي اعتذارية مادحة الا ان الشاعر لا يفيد كثيرا من هذه اللهجة لانه كان يشكو « من ظواهر غريبة بدت في الجو الادبي اولها ابهام في القيم ، وغموض في المقاييس ، وثانيها وهو المهم اختفاء النقد بالذات من عالم «الادب » كما تخبرنا السيدة الناقدة نفسها في المقدمة (ص ٣) . فناجي ـ كما يبدو من كتاباته ـ كان يعرف اهمية النقد . فالشاعر الذي يرى ان الفن يبلور القيمة الانسانية ، اما النقد فيجلو هذه القيمة المتبلورة للانظار (٢) لهو شاعر واع تمام الوعي بمهمة النقد في القاء الضوء على شعره .

ونفس الفجاجة النقدية التي تظهر في قلب الكتاب تظهر في خاتمته . فالسيدة الناقدة ترى « قبل أن نودع (ناجي) في شعره شعره ، بعد ان ودعنا في الحياة ، يحسن بنا ان نتطع الى هذه الصور القليلة من شعره ...وقد رأيت ان اخصها بركن خاص حتى لا تخطئها العين العابرة في زحام المعرض الحافل . فهمها لشعر ناجي كمعرض للصور المتزاحمة ، يضع في يدنا مفتاح نظريتها النقدية اذا صح تسمية « حديثها الممتع » ، بهذا الاصلاح . فنظريتها النقدية لا تعترف بالوحدة العضوية للقصيدة ولا بوحدة رؤيا الشاعر بل هي تكتفي بان تجتزىء صورة من هنا وجملة من هناك لتعبر عن اعجابها بها . وهي بذلك لم تتخط المنهج الذي اتبعه معظم النقاد العرب الكلاسيكيين الذين لم يعترفوا بوحدة القصيدة . واذا كان في الممكن التماس العذر لهؤلاء النقاد لان معظم النماذج التي كانت بين ايديهم تنقصها الوحدة العضوية المعبرة عن التوتر النفسي الحقيقي ، فان ذلك لا يمكننا بالنسبة للسيدة الدكتورة حيث ان قصائد ناجي لا تنقصها مثل تلك الوحدة .

واذا انتقلنا الى صلب الكتاب نفسه لنبحث عن مشكلات جديدة تثيرها الناقدة في بحثها عن ناجي لم تقابل محاولتنا الا الفشل . ففي الفصل الثاني من الكتاب نجد العنصر الابيقوري الذي ينتشر في كل الشعر الرمانتيكي العربي .

«هات اسعدني ودعني أسعدك قد دنا بعد التنائي موردك
وابلائي من ليالي التي قربت حيني وراحت تبعدك .. الخ»

جنبا الى جنب مع رائحة الموت الفواحة .

اصبحت من يأسي لو ان الردى يهتف بي صحت به هيا
هيا فما في الارض لي مطمع ولا ارى لي بعدها شيا
ماذا بقائي ها هنا بعد ما نفضت منه اليوم كفيا

ولا تلبث الا ان تفاجأ بهتاف الوطنية .. في وصف النسور المصرية

« وهلل السين اذ هلت طلائعنا طلائع المجد من أبناء وادينا »

(الضميرنا مهم للغاية اذ تلمح فيه الناقدة اعتزاز الشاعر بمصر ووجده بها) .

ثم بعد ذلك تلقى الشاعر المتواضع الذي هو ليس من فريق ابي الطيب بل هو « مصقول ... حيي » (ص ٣٤)

ولكنه مع الاسف ـ يفتخر بنفسه كبقية عباد الله اذ حكمت القافية (ص ٣٥) وللقافية احكام .

والشاعر الابيقوري المنبعث من شعره رائحة الموت المشتعل وطنية المتواضع المتكبر لم يخل شعره من الحكم كقوله :

« قد صار حب الحياة منا يقنع بالجيفة السباع
وعلم السمح ان يضنا وثبت الجبن في الطباع » ص ٣٦

الا اننا نفاجأ بعد عدة سطور ـ في نفس الصفحة ـ بالشاعر الحكيم متفزلا في الصحن الاباظي (ص ٣٦)ومنغمسا في المزاح (ص ٣٧) ولا داعي لاقتباس بعض ابياته التي تدل على انه فكه عذب الروح ، فهي من الشعر الرث ، الذي لا يمكن اعتباره شعرا على الاطلاق . وبعد هذا الخلط تتساءل المؤلفة هل استكملنا شخصيته ، هل وضحت صورته عندك (ص ٣٨) اذا كان هذا استفهاما حقيقيا فالاجابة لا يمكن ان تكون الا بالنفي اما اذا كان مجازيا فخبرني بربك ماذا يمكنني ان افعل ؟ الابيقورية والرغبة في الموت والتواضع والتكبر والتفلسف كلها صفات يمكن ان تجتمع في شاعر واحد ، ولكن ثمة تيار اساسي يجمع كل هذه التيارات المتفرعة في مجراه موقف من الحياة يحدد خلجات الشاعر النفسية ـ فعمر الخيام مثلا يتغزل ويكتب الخمريات ويخشى الله احيانا الا اننا نعلم تمام العلم ان الهرب من الحياة هو الخط الرئيسي في كل كتاباته . ولنأخذ مثلا اكثر تعقدا « اغنية الى وعاء اغريقي » (٣) والتي يبدأها الشاعر كيتس مخاطبا ذلك الوعاء :

انت يا عروس السكون التي لم يمسسها احد
انت يا من تبناها الصمت والزمان المتمهل

(٢) كتاب رسالة الحياة للدكتور ناجي ص ٧٩ ـ ص ٨٠ اقتباس الدكتورة نعمات احمد فؤاد .

(٣) اعتمدنا على الترجمة المنشورة في العدد الثاني من مجلة الاسكندراني (عام ١٩٥٩) التي تنشرها الجمعية الانكليزية باداب الاسكندرية .

من منشورات دار الآداب

دواوين نزار قباني

زينة لكل مكتبة

	الثمن
قصائد نزار قباني	٣٠٠ ق.ل
قالت لي السمراء	٣٠٠ ق.ل
طفولة نهد	٣٠٠ ق.ل
سامبا	١٠٠ ق.ل
انت لي	٢٥٠ ق.ل

دار الآداب

بيروت ـ ص.ب ٤١٢٣

يا راويا مخضوضرا .... يحكي قصة وردية
اعذب من اشعارنا »
ويختمها مخاطبا نفس الوعاء :
«ايه ايها الشكل الصامت ... يا من يحير فكرنا كالابدية
ايتها الاغنية الرعوية الباردة .. »

نقرأ هذا ولا نحار لان الناقد الانجليزي بيتت Pettet في كتابه المختار عن كيتس يتحدث عن العنصرين اللذين يتنازعان نفس تلك الشاعر. تقديسه للفن ، واحساسه بحرارة الحياة . فالفن الخالد الذي يثبت لحظة الفرح (يا راويا مخضوضرا) مهما كان سموه وارتفاعه لا يمكنه ان يقارن بالحياة النابضة الغنية فيثور الشاعر على نفسه ويسمي الوعاء « اغنية رعوية باردة » ولان الناقد قد تعاطف مع الشاعر ثم ابعده عن ذاته لكي يتخلص من الاستغراب العاطفي الكلي ، لذا كان في مقدوره ان يكتشف اساس التناقض بين هذين العنصرين المتصارعين . فالناقد بتبيانه ان التناقض ، بين اخضرار الوعاء الاغريقي في مطلع القصيدة وبرودته ، في نهايتها هو التناقض بين برود الفن اذا ما قورن بحيوية الحياة قد فسر كثيرا من الغموض الذي قد يعتقد البعض انه موجود في قصيدة كيتس الغنية غنى الحياة .

لا توجد مثل هذه الدراسة الجادة في كتاب السيدة الدكتورة بل اننا نجد العناصر المختلفة تتنازع الشاعر ناجي دون بذل اي محاولة لايضاح معالمها او تقصى اسباب ظهورها ونقط التقائها وتفرقها .

ونفس تلك الانفاس المتقطعة التي لا تقوى على البحث العلمي الرصين التي قابلناها اثناء قراءتنا لصلب الكتاب تقابلنا مرة اخرى في الفصل الاول المخصص للحديث عن حياة الشاعر فالناقد تعرض لحياة الشاعر دون ان تحاول ايجاد صلة بينها وبين اعمال شاعرنا .

فمثلا في طي الحديث تعرف ان شاعرنا قد قرأ دافيد كوبر فيلد التي كتبها ديكنز (ص ٩) وان قصة التلميذ للكاتب الفرنسي بورجيه لها ايماءات عاطفية بالنسبة له (ص ١٦) دون ان تعرف ما صلة هذا بكتابات شاعرنا . ولعل من اهم الاشياء التي يهتدي بها النقد الاوروبي الحديث هي دراسته للمصادر . فقصيدة اليوت « الارض الخراب » مستحيلة الفهم دون معرفة المصادر التي استمد منها الشاعر صوره حتى ان الشاعر نفسه قد اثبت قائمة بالمراجع في نهاية القصيدة ولكن يبدو ان السيدة الناقدة غير واعية بهذه الحقيقة بعد فهي تذكر ان ناجي قد قرأ ديوان الشريف الرضى (ص ٧) وكذلك ديواني خليل مطران والمتنبي (نفس الصفحة) دون ان تبين لنا مدى تأثره بهم والاثر الذي تركوه في تشكيل رؤيته الشعرية . بل واكثر من هذا تخبرنا الناقدة ان ناجي قد قرأ شكسبير وتأثر به « لقد كان يحفظ رواياته كلها بل كان يجيد تمثيلها وطالما حاضر عنها » (ص ١٤) اعمال شكسبير بعمقها اللانهائي وباحاسيسها الانسانية ليست من الشيء الهين الذي يمر عليه الانسان مر الكرام ويكتفي بذكر بعض الطرائف التي ، حدثت للشاعر مرة بخصوص محاضرة عن شكسبير القاها في المعهد البريطاني في المنيا !!! ان كان ناجي قد تأثر بشكسبير فهذه ظاهرة تستحق الدراسة والفحص من الناقدة . وكان يجب عليها تبيان مدى هذا التأثير ونقط الاختلاف والتشابه . اما اذا كان شكسبير لم يتمكن من المساهمة في تشكيل وتعميق شعر ناجي فتلك والله لظاهرة تستحق التسجيل لان المصري الذى يعرف شكسبير كل هذه المعرفة ولا يمكنه ان يعيش تجربته الشعرية ليتميز بأحاسيس فردية تستحق المعالجة المستفيضة .

هذا وهنالك ملاحظة عابرة الا انه لا بد وان اذكرها وهي ان الشاعر ناجي قد ترجم بعض قصائد الشاعر الفرنسي « بودلير » التي نشرها في ديوان « ازهار الشر » وقدم لها بدراسة مطولة عن حياة الشاعر فيها الكثير من الاراء النقدية . ومثل هذه الترجمة جديرة بالبحث في اي كتاب يعرض لشعر ناجي بالتحليل . والقضايا التي سقتها اثناء حديثي عن ناجي شكسبير تنطبق نفسها هنا على ناجي وبودلير بل ويمكننا ان نثير اكثر من سؤال لم انتقي ناجي هذا الشاعر بالذات من بين الالاف لترجمته ؟ وما مدى فهم ناجي للنصوص التي ترجمها . هل ترجمته لشعر بودلير تنبع من معايشة حقيقية ام من مجرد اختيار عشوائي ؟ ان ترجمة ناجي لبودلير لوثيقة ذات اهمية كبرى تستحق الدراسة من المهتمين بناجي .

وثمة شيء اخر اغفلته السيدة الناقدة اثناء حديثها عن حياة ناجي اعني تأثره بجماعة « ابوللو » في عملية تطوير الشعر العربي الحديث والانتقال به من التجزؤ الكلاسيكي الى العضوية الحديثة . ما هو الدور الذي لعبه ناجي في هذه الجماعة وما مدى مساهمته في نشاطها ، ثم لكي نكون اكثر استشرافا وشمولا في نظرتنا ما موقف ناجي من الشعر الواقعي الحديث والشعر الكلاسيكي القديم ، هل ناجي استمرار للاخير وتعبير عن الاول بمعنى هل هو حلقة تطور في تاريخ الشعر العربي ؟ ام انه انحراف عن المجرى العام للشاعر العربي ، كل هذه القضايا لم يات ذكرها من قريب او بعيد في الفصل المخصص لحياة ناجي وهي كما ترى ايها القاريء اساسية بالنسبة لاي محاولة لتقييم شعر ناجي ومعرفة المؤثرات التاريخية والشخصية في حياته .

وفي الختام قد يقول البعض ان عرضك السريع هذا قد اثار من الاسئلة اكثر مما اجاب هذا صحيح . لان ما نرجوه من مقالنا هذا هو اثارة القلق النفسي الذي يقود الى البحث العلمي الصحيح والى الاحساس بالمسئولية والامانة العلمية التي يجب ان يلتزمها كل مثقف تجاه ما يعرض له من مشكلات .

آداب الاسكندرية — عبد الوهاب محمد المسيري